فن القصة في الحضارة العربية

بقلم : عمر عثمان خضر

أشاع الغرب عن عمد ـ في مرحلة السيطرة الاستعمارية ـ الكثير من الافتراءات عن العرب والحضارة العربية ٠٠ وظلت ادعاءاته عن بدائية الانسان العربي تمثل الوجه القبيح لحضارة المستعمر التي تسعى الى تشويه تاريخ الشعوب ٠

ولقد ظلت الجامعات البريطانية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تحت سيطرة حفنة من العنصريين الذين يجاهرون بأن موهبة الخلق والابتكار من مميزات الشعوب الأوربية وحدها !٠٠ وتناسوا أن الحضارة العربية الاسلامية هي الشريان الرئيسي الذي أمد أوروبا بالعلم والحضارة ومهد لقيام النهضة الأوربية !٠٠ ولقد زعم هؤلاء العنصريين بأن العرب لا يملكون القدرة على ابداع فنون راقية لذلك رفضت الجامعات البريطانية دراسة المعمار المصري الفرعوني وفضلت عليه المعمار البيزنطي على أساس أن المصريين ـ كجزء من الشعب العربي ـ ليست لديهم فنون تستحق الاهتمام !! وتجاهلوا التراث المعماري الهائل في مصر وسوريا وبقية بلدان العرب !٠٠

وفي مجال الفنون القولية زعموا أن العرب لم يعرفوا فن القصة والرواية وتجاهلوا بالتالي التراث القصصي الهائل للحضارة العربية والذي تغلغل في تراث أوروبا عبر السنين ٠٠ وفي هذه السطور سنحاول القاء الاضواء على فن القصة والرواية في الحضارة العربية ٠

القصة في اللغة العربية :

أذهلت اللغة العربية بسموها ورقيها المستشرقين الأوروبيين كما أذهلت لغة القرآن الفخمة الشعوب الاسلامية ٠٠ وقد كرم الله سبحانه وتعالى اللغة العربية فنزل بها القرآن الكريم ولتحفظ اللغة العربية من التفكك والاندثار قال تعالى :(١) « الر تلك آيات الكتاب المبين ★ انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ★ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » ٠ صدق الله العظيم ٠

وقد دفع الاعجاز اللغوي والأدبي في القرآن الكريم ٠٠ وما يحويه من قصص أروع من كل ما يخطر على عقل بشر ٠٠ ويحكي في اعجاز هائل أطوارا من تاريخ البشرية يعجز الانسان مهما أوتي من الثقافة والبلاغة والموهبة أن يجاريه ٠٠ وقد ظلت ولا تزال قصص القرآن الكريم أعظم ما سمعت به البشرية واستوعبته ٠٠ وقد دفع هذا الاعجاز اللغوي ٠٠ وهذا اللسان الكامل المستشرقين الى أن يتساءلوا ٠٠ كيف استطاع المجتمع العربي في الجاهلية أن يستوعب هذه اللغة الراقية ؟٠٠ ومن هنا بدأت البحوث في اللغة العربية والمجتمع العربي قبل الاسلام ٠٠ وشه الجزيرة واكتشاف كنوز اللسان العربي وقد خرج المستشرق الايطالي كايتاني Caetani العربية الموطن الأصلي للعرب ٠٠ وبدأت محاولات تتبع الحضارة العربية ٠٠ بقولته الشهيرة : (٢) « من الحقائق التاريخية أن لغة شعب من الشعوب هو عنوان تقدمها ٠٠ وهي نموذج لما وصلت اليه في مدارج الحضارة ٠٠ ويستحيل على أمة متخلفة حضاريا أن يكون لها لغة راقية ولسان بليغ وأدب وشعر وفنون متقدمة ! » ٠

لقد ارتبك المستشرقون وهم يجدون أنفسهم عند دراسة المجتمع الجاهلي أمام مجتمع متخلف لا يتناسب مع سمو اللغة العربية بأدابها وفنونها ٠٠ وفشل كل قياس لانحدار هذا المجتمع وتخلفه وتراثه المتكامل من اللغة٠٠ ومن المستحيل عقليا ومنطقيا ان تكون اللغة العربية بهذه الدرجة من السمو دون أن يسبق وجودها حضارة متقدمة راسخة ٠٠ وعلى ذلك فاللغة العربية الفخمة التي عرفها العرب في الجاهلية لم تكن من نتاج هذا المجتمع ٠٠ وانما هو نتاج مجتمع عظيم وصل الى قمة الحضارة في عهود سابقة ٠٠ وقد حاول (كايتاني) أن يتتبع تاريخ الحضارة العربية ووجود في الابحاث الأركولوجية ما يؤكد أن الجزيرة العربية كانت منذ أكثر من عشرة آلاف سنة جنة عامرة بالأنهار والبحيرات والغابات ٠٠ وتنعم بحضارات متقدمة ٠٠ وقد أكد على ذلك البحوث التي أجراها (فبلي) في صحراء الربع الخالي حيث اكتشف بقايا حيوانات ضخمة وحيوانات بحرية ووجود سواحل بحيرات قديمة طمرتها الرمال ٠

الحضارة العربية عبر التاريخ :

في بحثنا عن أصول اللغة العربية علينا أن نتوقف قليلا عند تاريخ جزيرة العرب ٠٠ فمن المؤسف حقا أن الدراسات التاريخية للحضارة العربية تتوقف عند حدود الألف الثانية قبل الميلاد ٠٠ وتبدأ بحضارات جنوب الجزيرة العربية ٠٠ وربما لو تقدمت الدراسات الأثرية في صحراء الجزيرة العربية لأمكن التوصل الى تاريخ أكثر قدما ٠٠ ويقول فيليب حتى في مجلده تاريخ العرب (٣) ٠٠ « ان كل الشعوب التي كونت حضارة في شمال الجزيرة العربية وشمال افريقيا والهلال الخصيب قد

هاجرت من قلب الجزيرة العربية •• وأنه في حوالي عام ٣٥٠٠ ق•م خرجت هجرة ضخمة استوطنت مصر وكونت مع سكانها هذا الشعب المعروف في التاريخ » • وتؤكد الدراسات الجيولوجية أن الجزيرة العربية شهدت قبل أن يتزحزح الجليد في أوربا في العصر الجليدي الرابع مناخا يشبه مناخ جنوب البلقان •• أي أنها كانت منطقة معتدلة باردة تنمو فيها الغابات والحشائش •• وأرض خصبة لقيام حضارات زاهرة •• ثم بدأ زحف الصحراء التدريجي على الجزيرة وتوالت الهجرات نتيجة القحط والجفاف •• وهذه الهجرات هي التي كونت فيما بعد حضارات الشرق الأوسط المعروفة •

تخلص من هذا الى أن الجزيرة العربية هي موطن الحضارات الزاهرة في عصور لا نعرف عنها شيئا •• هذه الحضارات هي التي أنتجت اللسان العربي •• فاللغة العربية حصيلة جميع لهجات الجزيرة العربية •• وهو يحمل في طياته تاريخ هذا الشعب العريق •• وقد كا ننزول القرآن الكريم المعجز بنصه وروحه أثر عظيم في حفظ هذه اللغة واثرائها •• ونحن نعلم أن الكتب المقدسة الأخرى ترجمت الى شتى اللغات •• وفقدت اصالتها نتيجة لتدخل المترجمين والنساخ •• واللغة العربية قد وجدت في القرآن الكريم خير حماية من التفكك والانهيار شأن لغات العالم بأسرها••

ولو تتبعنا الآن مصطلح « قصة » في اللغة العربية سنجد أنه مأخوذ من « قصة الأثر » وهي بذلك مرتبطة بتسجيل الواقع والعمل على تعقبه ، ولذلك كانت القصة العربية في الآداب القديمة واقعية مما أدى الى امتزاجها بالتاريخ وتطورت بعد ذلك لتستوعب فنون السرد جميعا •• وتعريف القصة في القاموس الفرنسي هو « رواية واقعية أو حقيقية أو خيالية تستهدف اثارة الاهتمام بتصوير العواطف والمثل الأخلاقية » وتغير مفهوم القصة في الادب مئات المرات •• وكل تفسير يؤكد على الاهتمام بتصوير الاحداث والظروف النفسية والبيئية وتحليلها للوصول الى فهم أكثر للانسان ••

والقصة بهذا المفهوم جزء من تراث العرب القديم والحديث على السواء فالعرب عرفوا منذ أقدم العصور فن الرواية •• والعالم قد أخذ منهم الكثير سواء قبل الاسلام أو بعده ••

القصة العربية قبل الاسلام :

اعتمدت أوروبا في أول معرفتها بفن الرواية على تراث الأساطير اليونانية والرومانية •• وظلت قاصرة عن عطاء فني متقدم حتى تباشير عصر النهضة المعروف

بتأثره بالتراث العربي في الأندلس وصقلية وابان الحروب الصليبية (٥) ٠٠ وقد ظل التصور الشائع بأن العرب لم يعرفوا فن الرواية الأسطورية ٠٠ والحقيقة أن المجتمع العربي الجاهلي قبيل الاسلام لم يكن يحفل بالأسطورة ٠٠ وهذا بالطبع لا ينفي وجودها ٠٠٠ فالاسلام قد قضى على التفكير الأسطوري عند العرب ٠٠ وبالتالي على تراث الأساطير الشائعة قبل الاسلام فنحن نجد في ثنايا القصص الشعبي في صدر الاسلام بقايا أساطير قضت عليها العقيدة السمحة ٠٠ ذلك أن الأسطورة بطبيعتها ترتبط بالعقيدة الوثنية ٠٠ والمجتمع الجاهلي رغم وثنيته كان ينحو نحو الواقعية حيث أن الطبيعة بقسوتها أبعدت الانسان العربي عن الغرق في متاهات الأساطير والبعد عن التفكير الخرافي كما في قولة الشاعر الجاهلي :

حياة ثم موت ثم بعث
حديث خرافة يا أم عمرو

ورغم ندرة ما وصلنا من أساطير العصر الجاهلي فاننا نستشف من هذا الخبر وجود بعض الأساطير ٠٠ يقول الأولوسي في كتابه « بلوغ الأرب » (٦) « ان العزي كانت شيطانة بعث الرسول (ص) اليها خالد بن الوليد لما افتتح مكة ٠٠ وكانت ببطن نخلة ٠٠ فأتاها ٠٠ فاذا بحيشية نافشة شعرها ، واضعة يدها على عاتقها تصرف بأنيابها فضربها خالد ففلق رأسها ٠٠ ثم أتى النبي فأخبره فقال : تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب ، أما أنها لن تعبد بعد اليوم » ٠

وكلنا يعرف أن العزى كانت أحد الأصنام التي عبدها العرب في الجاهلية ٠٠ وربما ارتبطت بالأصنام أساطير وقصص ٠٠ قضى عليها الاسلام ٠٠ كذلك نعرف أن العرب في الجاهلية كانوا يحكون بعض القصص الأسطوري من ذلك ما يقال (٧) : « ان لقمان خير بين بقاء سبع بعران سحر ٠٠ وبين سبعة أنسر كلما هلك نسر خلفه نسر آخر ٠٠ فاستحقر الأباعر واختار النسور ٠٠ فلما لم يبق غير السابع قا لابن أخ له : يا عم ٠٠ ما بقي من عمرك الا عمر هذا ٠٠ فقال لقمان : هذا لبد (لبد بلسانهم يعني الدهر) ٠٠ فلما انقضى عمر لبد رآه لقمان واقفا فناداه : انهض لبد ٠٠ فذهب لينهض فلم يستطع فسقط ومات ٠٠ ومات لقمان معه » !!

هذه أسطورة عربية عن نهاية الانسان الطبيعية وهو الموت ٠

وتتعدد الأساطير في ثنايا الحكايات القديمة ٠٠ ولكنها في الغالب مبتورة وناقصة ٠٠ ولعل أبرز مجال لدراسات « القصة » في الحضارة العربية هو تتبع الحكايات الشعبية العربية وتأثيراتها على التراث العالمي ٠

المقامة كفن قصصي :

عرف المجتمع العربي قبل الاسلام أشكال عديدة للسرد القصصي لعل أشهرها « المقامة » وهي نوع من السرد القصصي ظل الدارسون لفترة طويلة يتصورون انه ظهر على يد ابن دريد أو بديع الزمان الهمزاني ٠٠ ولكن البحوث أثبتت أن «المقامة» كانت من الأشكال الادبية التي عرفها المجتمع الجاهلي ٠٠ وكانت تجمع بين البلاغة والابداع القصصي ٠٠ وفي العصر الاسلامي تغير شكل المقامات من سرد لبعض الأحداث والمواقف الى عرض لشخصيات كاريكاتورية في قالب نقدي ٠٠ وقد قامت النهضة الأدبية في مجال القصة العربية الحديثة بمحاولات لمحاكاة « المقامات » نرى ذلك في حديث عيسى بن هشام ومقامات اليازجي كما صاغها في قالب جديد الاستاذ توفيق الحكيم في « يوميات نائب من الأرياف » ٠

الشعر الجاهلي وفن القصة :

يحوي الشعر الجاهلي قصصا راقيا ٠٠ وفيه كل مقومات القصة المعاصرة من أحداث وشخصيات ومواقف ٠٠ وقد تحولت هذه الاشعار الشهيرة بما تحويه من قصص الى ملاحم شعبية استمد الغرب منها الكثير من عناصره القصصية ٠٠ قصة البراق : وهي تحكي عن الصراع بين القبائل العربية بأخلاقياتها وتراثها والحضارات المجاورة (الفارسية) ذلك أن المجتمع العربي في الجاهلية كان مفككا والقبيلة هي النظام السائد ٠٠ والحروب القبلية تنهك الناس في كل مكان وتحكي قصة البراق عن بطل عربي أحب ابنة عمه (ليلى بنت لكيز) وخطبها وانشغل بحرب البسوس ٠٠ واختطف الفرس (ليلى) ٠٠ وحاول « ألبراق » استعادة خطيبته المأسورة ففشل ٠٠ فاتجه الى القبائل العربية محاولا توحيدها لمحاربة الفرس لانقاذ « ليلى » والشرف العربي ٠٠ ونجح في مسعاه حين بدأ الرواة يرددون شعر « ليلى » الذي هز نخوة العرب المعروفة ومنها البيت الشهير :

قيدوني ، عذبوني ، ضربوا
ملمس العفة مني بالعصا

وثارت القبائل العربية وكانت أبيات « ليلى » كالنار تشعل فيهم أسمى مشاعر الشهامة والتضَحية ٠٠٠ فقاتلوا في سبيل الشرف العربي حتى انتصروا ٠

قصة مضاض (٨) ٠٠

لعل قصة مضاض هي من أقدم ملاحم الحب الغريب في التاريخ ٠٠ ذلك أن الحبيبة تهجر حبيبها ٠٠ رغم كل تشوقاتها له ، بسبب الغيرة ٠٠ وتحكي القصة عن الفتى العربي مضاض الذي أحب فتاة من أهله تسمى « مي » نشأت معه منذ الطفولة ٠٠ واشتهر تودده العنيف لها وتقدم يخطبها فرحبت به أسرة « مي » وبدا كأن قصة الحب في سبيلها للتوريج بالزواج ٠٠ وهنا يظهر منافس لمضاض في حب « مي » هو قيس بن سراج الذي أراد الدس لمضاض ٠٠ فاتفق مع فتاة أخرى هي « رقية بنت البهلول » أن تطلب من مضاض أن يسقيها في همس وفي وقت تكون فيه « مي » مشغولة بمراقبته ٠٠ وهكذا يتصاعد الحد ثالدرامي ٠٠ وترى « مي » رقية بنت البهلول وهي تهمس لمضاض بشيء وهي تقترب منه جدا ٠٠ فتشتعل نيران الغيرة في قلب « مي » بينما مضاض المسكين لا يعرف شيئا سوى أن الفتاة تطلب منه أن يسقيها فيأتي لها بالماء ٠٠ فتزعم له أنها متعبة فيسقيها مضاض بيده بينما مي تراقبه في جنون ٠٠ ويتقدم قيس بن سراج فيحكي لها حكاية ملفقة عن عشق مضاض لرقية ويزعم انه سمعه ينشدها :

رقية قلبي قد تبين صدعه
وللحب منه شاهد ودليل
رأيت الهوى يهوى وللحب واصل
فهل لك أن يلقى الخليل خليل ؟

ويقول انه سمع « رقية » تجيبه بقولها :

أصون الهوى والطرف مني كاتم
ولا يعلمن الناس اذ ذاك ما دائي
سوى انني قد فزت منك بنظرة
تجرعت عذب الحب منها مع الماء !

وتثور « مي » وتهجر حي مضاض بعد أن تنشد :

مضاض عذرت الحب والحب صادق
وللحب سلطان يعز اقتداره

اذا هاج ما عندي لأول غيرة
علاه اشتعال لا يطاق استعاره

ويدهش مضاض لهجر خطيبته ويرحل وراءها وينشد لها :

علام قبست النار يا أم غالب
بنار قبيس حين هاجتك ناره
على كبد حري وانت عليمة
بغيب رفيق لا يبين خماره
فان لم يكن وصل فلفظ مكانه
اليه والا موطن الموت داره

★★★

هذه القصة الغربية في أحداثها الدرامية نموذج من القصص العاطفي في العصر الجاهلي ·· كتبت نثرا يتخلله حوار قصير وفيه كل مقومات القصة الحديثة فنجد مضاض بعد أن يفشل في استعادة محبوبته يصوم عن الطعام والشراب ويهزل ويتعرض للهلاك ·· وتصل « مي » في لحظاته الاخيرة بعد أن تتأكد من حبه ·· لكن هيهات ·· فقد مات مضاض !!

وهذه النهاية المأسوية للحب العفيف نجدها في سلسلة قصص العشاق التي عرفت بالحب العذري نسبة الى قبيلة بني عذرة التي ينتسب اليها جميل بن معمر صاحب القصة المشهورة والذي يقول في الحب :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة
وأي جهاد غيرهن أريد ؟!
لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل بينهن شهيد !

لقد ازدهر الادب الرومانسي بأشكال فريدة من القصص العاطفي ظل الناس يتداولونها الى عصرنا الحالي ·· فما زال يرمز لأي عاشقين باسم قيس ولبنى ·· وهي مأساة العاشق الذي يجبره أهله على هجر زوجته وحبيبته ·· ويفقد عقله وهو يحاول استعادتها ·

أتبكي على لبنى وأنت تركتها
وكنت كآت غيه وهو طائع ؟
فلا تبكين في اثر شيء ندامة
اذا ترعته من يديك النوازع
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى
ويجمعني والهم بالليل جامع

وقد وصلت أشعار قيس في لبنى الى أهلها فأبعدوها وهددوه فقال :

فان يمنعوها أو يحل دون قربها
مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يمنعوا عيني من دام البكا
ولن يذهبوا ما قد أجن ضميري

ويقول :

وأن تك لبنى قد أتى دون وصلها
حجاب منيع ما اليه سبيل
فان نسيم الجو يجمع بيننا
ونبصر قرن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل في الحي تلتقي
ونعلم أنا بالنهار نقيل
وتجمعنا الارض الفضاء وفوقنا
سماء نرى فيها النجوم تجول

وعندما حاول أهله تشويهها وذمها كان يقول :

يقولون عنها فتنة كنت قبلها
بخير فلا تندم عليها وطلق
فطاوعت أعدائي وعاصيت ناصحي
وأقررت عين الشامت المتملق
وددت ـ وبيت الله ـ أني عصيتهم
وحملت في رضوانها موثق

وتكره عيني بعدها كل منظر
ويكره سمعي بعدها كل منطق

وتستطرد القصة فتحكي كيف نجح أهل قيس في تطليقها منه ٠٠ وأما لبنى زوجها أهلها برجل آخر ٠٠ ويفقد قيس عقله ٠٠ وتهلك لبنى ويهلك معها قيس ٠

الملاحم والقصص الشعبي قبل الاسلام :

تملك معظم الشعوب ملاحم شعبية تحكي عن قصص البطولة والفداء٠٠ وتجسد أحلام الشعوب ٠٠ وقد عرفت أوربا الشعراء الشعبيين في العصور الوسطى في الأندلس بأسلوب عربي ٠٠ فانتشروا بعد ذلك في كافة أرجاء أوربا ينشدون القصص الشعبي ٠٠ وقد ظل الأوربيون لفترة طويلة يتصورون أن الاغريق هم مبدعو الملاحم الشعبية حتى اكتشفوا الملاحم الشعبية في الهند وفي حضارات الهلال الخصيب وفي الحضارة العربية القديمة وفي أجزاء أخرى من العالم ٠٠ وقد لاحظ بعض المستشرقين أن بعض أحداث الالياذة والأوديسة للشاعر الاغريقي هوميروس تتشابه مع القصص الشعبي العربي ٠٠ والواقع أن العرب أبدعوا الملاحم الشعبية من أقدم العصور ٠٠ وشملت هذه الملاحم أجزاء من تاريخهم وبطولاتهم ونضالهم ضد الامبراطوريات القديمة ٠٠ وقد تعرضت هذه الملاحم لتغيرات جذرية في العصور التالية لبزوغ فجر الاسلام ٠٠ ومن أهم هذه الملاحم ٠

قصة الملك سيف بن ذي يزن

نشأت هذه الملحمة في مرحلة قهر فيها الأحباش العرب ٠٠ واحتلوا اليمن ٠٠ وقامت الملحمة لترد الاعتبار للعرب فاختارت شخصية حقيقية (تاريخها معروف جيدا) وهو شخصية الملك سيف بن ذي يزن وهو من ملوك اليمن الذين حاولوا مقاومة الاحتلال الحبشي ٠٠ ورغم أن الملحمة تختلف كليا عن التاريخ المعروف للملك سيف بن ذي يزن فان الفنان العربي قد نسجت حوله أسطورة هائلة من مولده وقيامه بقيادة العرب ٠٠ ويلاحظ أن الفنان العربي قد جعل من شخصية الملك سيف بن ذي يزن الذي عاش قبل الاسلام ملكا مؤمنا على دين ابراهيم عليه السلام ٠٠ ويحارب من أجل نشر دعوة التوحيد ويدخل في صراعات هائلة مع اعداء العرب ٠٠ ويلاحظ أن السيرة الشعبية في تطورها الاخير قد جعلت من « سيف أرعد » هو ملك حبشي حكم بالفعل من عام ١٣٤٤ ـ ١٣٧٢ م (٩) وملحمة الملك سيف بن ذي يزن بما تحويه من خوارق وخيالات وأساطير تجسيد للأحلام العربية بقيام وحدة عربية تحت قيادة ملك

عظيم ٠٠ وهـي شأن الملاحم قد سلحت البطل بالخوارق وسخرت لـه الجن والسحر ليخدموه في رسالته النبيلة ٠٠ والملحمة تعرضت لتغيرات جذرية وأخذت شكلها النهائي في مصر ٠٠ وهي محاولة عربية شعبية لاحياء روح النضال ضد الغزو الأجنبي ٠٠ ومحاولة أسطورية لعبور عهـد الانحلال والضعف والتحلل في الدولـة الاسلامية في العصور الوسطى الاسلامية ٠

السيرة الهلالية :

وهي من ملاحم النضال من أجل البحث عـن أرض خصبة وهي شأن المجتمع العربي الذي نشأ في الجزيرة تعتمد على الأنساب العربية وتحفل بالقصص المتنوع وتعرض في صورة خلابة أخلاقيات العرب وظلت الهلالية لفترة طويلة من تاريخ الأمة العربية مصدرا خصبا للرواة الشعبيين يلهبون بها خيـالات المستمعين بعرض صور البطولات العربية ٠

عنترة بن شداد العبسي

يقول المستشرقون (١٠) « ان قصة عنترة هي ملحمة العرب الكبرى فهي تبرز معالم البيئة العربية في العهود السابقة على الاسلام وتروي ما جرى فيها من وقائع وحروب ، وتسجل تقاليدهم وعاداتهم ومثلهم الاخلاقية » وقصة عنترة العبسي تقوم على فكرة الصراع ضد التفرقة العنصرية ٠٠ فعنترة الأسود ابن جارية سوداء يعيش كعبد ضائع رغم امكانياته الهائلة ٠٠ ويقع في حب عبلة ابنة عمـه الذي لا يجرؤ أن يفكر في الارتباط به ٠٠ وتتـاح الفرصة الذهبية لعنترة حين تهاجم قبيلته من قبيلة أخرى ٠٠ وفي أشد لحظات الحرج يستنجدون بالفارس عنترة الذي يرفض أن يحمي الديار قبل أن يعترف به الأب الشرعي ٠٠ وعندما يعلن شداد أبوته لعنترة ابن زبيدة ٠٠ تتفجر كـل طاقـات الفارس العظيم ويهزم الأعـداء ويحمي الديار والنساء والأطفال ويستمر الصراع حتى يتوج عنترة كفارس للقبيلة ٠٠ وبعد طول معاناة يفوز بابنة عمه عبلة ٠٠

وقصص الفروسية العربية كانت النبع الذي أخذت منه الكثير من القصص في عصور النهضة ٠٠ وملحمة عنترة هي بالتأكيد العمل الفني الاول الذي تعرض لمشاكل اللون والوضع الطبقـي ٠٠ وهـي جديرة بـأن توضع في مصاف أولـي القصص الانساني ٠

الاسلام وفن القصة

جاء الاسلام ٠٠ وتغير وجه الحياة على الارض العربية ٠٠ جاء الاسلام والمجتمع العربي منهار تماما ٠٠ يعيش حياة تعرب الى الوجودية ٠٠ وتضيع قيم أخلاقية كثيرة نتيجة للفساد المستشري في المجتمع ٠٠ واستمع العرب في انبهار لآيات الكتاب الحكيم ٠٠ واتضح لهم ـ وهم سادة الكلمة ـ أن أيكلام عدا كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم هراء وتخريف ٠٠ والقرآن الكريم جاء بروائع القصص عن تاريخ الانسان وعن الانبياء ٠٠ وعن أطوار من تاريخ الارض والبشرية ما يعجز أي عقل الا أن يتقبله في خشوع وايمان ٠٠ واختصرت قصص القرآن الزمن والمكان ٠٠ وأعادت للانسان آدميته وحريته وكرامته ٠٠ وفي مجتمع منهار كمجتمع الجاهلية كم هو مذهل وعظيم للانسان أن يغترف من هذه الكنوز الربانية ٠٠ فلا عجب ان نجحت الدولة الاسلامية في خلال عشرين سنة فقط أن تطوي امبراطوريات عظيمة كامبراطوريات الفرس والرومان ٠٠ وأن يستظل بنور القرآن شعوب ضائعة تمتد من السند الى مشارف أوربا ٠

قصص القرآن الكريم

يحتوي القرآن الكريم على أروع القصص التي تصور أدق اللحظات وأهم الأحداث في تاريخ البشرية في تصوير الهي مبدع ٠٠ وقصص القرآن العظيم تشد السامعين في كل مكان والى أبد الآبدين ٠٠ وهذه القصص التي لم تتعرض لأي تحوير أو تحريف شأن الكتب المقدسة الأخرى أعظم من أي خيال بشري ٠٠

ولنقرأ الآيات المعجزة التالية من سورة مريم (١) :

قال تعالى : واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا :

قالت : اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا ٠

قال : انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما ذكيا ٠

قالت : أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا ٠

قال : كذلك قال ربك هو علي هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ٠٠ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ٠٠ فاجاها المخاض الى جذع النخلة

قالت : يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ٠٠ فناداها من تحتها ألا تحزني ٠٠ قد جعل ربك تحتك سريا ٠٠ وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ٠٠ فكلي واشربي وقري عينا ٠٠ فأما ترين من البشر أحدا فقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا ٠٠ فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا ٠٠ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا فاشارت اليه ، قالوا :

ـ كيف نكلم من كان في المهد صبيا ؟

قال : اني عبدالله اتيني الكتاب وجعلني نبيا ٠٠ وبرا بوالدتي ، ولم يجعلني جبارا شقيا ٠٠ والسلام علي يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا » ٠

صدق الله العظيم

هذا التصوير الالهي لقصة مريم بهر الانسان ٠٠ أي انسان يفهم اللغة العربية ٠٠ والبناء القصصي متكامل ٠٠ لا يحتمل أي تأويل ٠٠ لذلك كانت قصص القرآن الكريم مدرسة للمسلمين ٠٠ استمدوا منه الى جانب الايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلام قدرات لغوية وفنية ٠٠ والكتب المقدسة الاخرى مثل التوراة والانجيل قد شوهت القصص الأصلية ٠٠ ذلك أن الأديان السماوية تهدف الى تبصير الانسان بطريق الايمان الصحيح ٠٠ كما تهدف الى السمو (١٢) بمرتبة الأنبياء ٠٠ ونجد التوراة ٠ وقد شوهدت صور أنبياء بني اسرائيل والصقت بهم صفات هي في مجملها أخلاقيات الحاخات الوضيعة ٠٠ بل ويقرر جيمس فريزر أن التوراة قد صورت شخصية يعقوب النبي كمثال للغش والخداع والحيلة والمكر (١٣) ، والفرق هائل بين قصص القرآن الكريم العظيمة ٠٠ وبين الصور المشوهة الضعيفة التركيب في التوراة المحرفة ٠٠ وسنعرض لمقارنة بسيطة لما رواه القرآن الكريم وما عرضته التوراة وقام بنقده جيمس فريزر ٠٠ ففي قصة آدم تروي التوراة أن الرب قد طرد آدم وحواء من الجنة خوفا من أن يأكلا من شجرة الخلد فينافساه في الخلود !! (حاشا لله) ٠ « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا بالخير والشر ٠٠ ولعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا ٠٠ أبدا فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليعمل الارض التي أخذ منها » (١٤) ٠

هذا التصوير الرديء الذي حرفت فيه القصة الأصلية لتخدم أغراض حاخات اسرائيل تقابلها صورة رائعة ربانية في القرآن الكريم ٠ قال تعالى في سورة البقرة (١٥) : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجتك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما

ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ٠٠ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا منه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين » ٠

صدق الله العظيم

وفي سورة طه (١٦) يعرض القرآن الكريم قصة آدم بصورة متكاملة تحكي قصة آدم عليه السلام وحواء عليها السلام منذ خلقا في الجنة الى أن أخرجا منها ٠ قال تعالى « فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ٠٠ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ٠٠ » ٠

وهذا التصوير القرآني العظيم لقصة الخلق والذي ينحو نحو التجريد شأن القصص القرآني ٠٠ فلم تصف لنا الآيات نوعية الشجرة ولا الكيفية التي دخل بها الشيطان الجنة ٠٠ وهو تجريد رائع ذلك أن آدم أخرج من الجنة لأنه كان مقدرا له أن يعمر الارض والدليل قوله تعالى : « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ٠ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني أعلم ما لا تعلمون » (١٧) ٠

صدق الله العظيم

ومنذ ذلك نجد أن قصص القرآن الكريم تتناسق في منطق لتحكي تاريخ الانسان والكون ٠٠ بينما نجد الكتب المقدسة المحرفة وهي تنحو الى تشخيص الرب على نحو انساني ٠٠ فهو يتمشى في الجنة في المساء الرطب (١٨) ، وهو ينادي آدم الذي اختبأ وراء الشجر ٠٠ الخ ٠٠ هذه التوليفات التي حشوا بها الكتب المقدسة بعد تحريفها جعلت تلك الكتب تحوي أفكارا في غاية السذاجة والتناقض ٠٠ بينما قصص القرآن الكريم تتحدى عبر الزمان أي مخيلة بشرية أن تأتي بمثله ٠٠ وهكذا كانت قصص القرآن الكريم خير زاد للعرب ٠٠ وسنوالي عرض بعض قصص القرآن العظيم ٠

قصة الطوفان الرائعة في القرآن

قصص القرآن الكريم حقائق تاريخية لا تقبل المناقشة فهي من عند الله مباركة وقصة الطوفان العظيم الذي أغرق الارض بمن عليها ولم ينج منها سوى نوح وجماعته المؤمنة ٠٠ وقد لخص القرآن الكريم قصة الطوفان أروع تلخيص (١٩) ٠ قال تعالى « وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا

يفعلون ٠٠ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ٠٠ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ٠

قال : ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ٠٠ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ٠٠ حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل ٠٠ وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم٠٠ وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ٠٠ قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ٠٠ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين » ٠

صدق الله العظيم

هذا التصوير الرائع لقصة الطوفان يختلف تماما عن التصوير الرديء الذي كتبه من حرفوا الكتب المقدسة ٠٠ وقد أثبتت الحفريات في بابل أن الحضارات القديمة قد وصلتها أنباء الطوفان العظيم ٠٠ فنجد لها ذكر في مخلفات الملك الأشوري أشور نيبال (من عام ٦٦٨ ق٠م حتى عام ٦٢٦ ق٠م) ، كما نجد قصة الطوفان التي توارثها البشر على قطعة فخار في حفريات ينبور ترجع الى عام ٢١٠٠ ق٠م وفيها ذكر لسفينة نوح وحشد الطيور والحيوانات فيها ٠٠ وترجع هذه الحفرية الى عصر الملك البابلي حمورابي حوالي عام ٢١٠٠ ق٠م ٠ كل التصورات لسرد قصة الطوفان الحقيقية اذن محاولات بشرية بعد أن ضاعت أصول الكتب المقدسة الى أن جاء القرآن الكريم كان مدرسة عظيمة منها تعلم المسلمون كل أسرار الحياة وتاريخ الانسان ٠٠ وان قصص القرآن الكريم كانت معجزة تصاغر أمامها عتاة الرواة ٠٠ وكانت قمة البلاغة والأداء وهي التي بحق حفظت لنا اللغة العربية بأصولها القديمة ٠٠ فلولا كتاب الله لتغيرت اللغة العربية وذابت كما ذابت اللاتينية واللغات الأخرى ٠

القصص الاسلامي العربي

استمد المسلمون من قصص القرآن الكريم مادة خصبة للرواية ولما كانت قصص القرآن الكريم تنحو الى التجريد فقد قام علماء التفسير بدور عظيم في تفسير قصص القرآن الكريم ٠٠ والواقع أن تفسير القرآن قد تعرض لمحاولات اسرائيلية

فيما يعرف بالاسرائيليات ٠٠ لكن علماء الاسلام وقفوا بحزم ضد هذه المحاولات ٠ ومن ذلك ما ذكره الطبري في تعليقه على آراء المفسرين الذين خاضوا في وصف الشجرة المحرمة (٢٠) ٠ فقال : « ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك في القرآن أو السنة الصحيحة ، وهكذا نجد أن قصص القرآن الكريم لم تتعرض لأي تغيير أو تحريف يخرج بها عن الأصل الوارد في الكتاب والسنة ٠٠ وفي العهود الاسلامية تغير مفهوم القصة ٠٠ فاروع القصص هو قصص القرآن الكريم ٠٠ التي تحكي عن تاريخ الارض والانسان٠٠ وعن الأنبياء٠٠ وعن كل ما يهم الانسان معرفته من أمور الدين والدنيا ٠

التاثيرات الاسلامية على تراث أوروبا

قامت النهضة الأوربية ـ في كافة مجالاتها ـ على التاثيرات الاسلامية العربية (٢١) بعد احتكاك أوروبا بالمسلمين في الأندلس وصقلية والشم ابان الحروب الصليبية ٠٠ وانتشر شعراء « التروبادور » في أوربا ينشدون القصص العجيبة على الناس لأول مرة ٠٠ ذلك أن فن القصة في الحضارة العربية الاسلامية كان يحتفي بالشعر الغنائي ثم تطور بعد ذلك الى شعر ملحمي يصور وقائع الحروب التي كانت لا تهدأ بين القبائل العربية ٠٠ وبين العرب والدول التي تجاورهم ٠٠

وكان الشعر القصصي النواة الاولى للقصة العربية التي أثرت بشكل مباشر في حياة الشعوب الأوروبية ٠٠ فنحوا على منوالها ٠٠ فشعراء « التروبادو » ـ وهم خليط من العرب والاسبان ـ كانوا ينشدون في شعرهم قصصا عربية اسلامية بعد التحويرات اللازمة ٠٠ سواء في المحتوى أو اللغة ٠٠ بل ان اسم « التروبادو » هي مزج بين اللغتين العربية والاسبانية ٠ ويتألف من قطعتين « تروب » وهي الكلمة الاسبانية بمعنى « الفرقة » والكلمة العربية « تدور » ٠

وكلنا يعلم أن الجيري دانتي مؤلف « الكوميديا الالهية » أول عمل أدبي باللغة الايطالية قد استمد فكرته وروايته من « رسالة الغفران » لأبي العلاء المعري ٠٠ وشهدت أوربا مولد القصة الحديثة على يد بوكاشيو مؤلف « الديكامرون » وهي مجموعة قصصية استمد بوكاشيو مادتها من كتاب ألف ليلة وليلة ٠

« ألف ليلة وليلة »

رغم الأصول الفارسية والهندية في « الليالي » فقد تغيرت تغيرا كاملا في الأمة العربية الاسلامية ٠٠ وشملت على قصص عربي من العراق والشام ومصر ٠٠ وقد

عرفت أوروبا « ألف ليلة وليلة » بعد أن قام الفرنسي أنطوان جالان بترجمتها الى اللغة الفرنسية ٠٠ وأخذ منها بوكاشيو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥ م) وشوسر الانجليزي (١٣٤٥ ـ ١٤٠٠ م) ٠ والملاحظ أن القصص الأوربي كان ينقل الفن العربي بشكل مباشر ومثير دون أي ذكر للمصادر العربية ٠٠ والغريب أن أوربا تعد كلا من بوكاشيو وشوسر روادا لفن القصة في حين تتجاهل المصادر التي استمدا منها مادة قصصهم ٠

الأشعار العربية وفن القصة

احتفل العرب منذ أقدم العصور بالشعر ٠٠ وصاغوا معظم قصصهم في قوالب شعرية راقية ٠٠ بل لقد صاغوا أحداث قصصهم في شعر يكاد يقرب من العمل المسرحي ٠٠ ومع ذلك لم يترك لنا الفنانون العرب القدماء أية مسرحية ٠٠ ولم يزدهر الأدب المسرحي رغم اكتمال كل مقوماته ٠٠ فهناك قصائد تكاد تحكي مواقف تمثيلية ٠٠ نجدها عند امرىء القيس وجميل ووضاح اليمن وعند أبي نواس وابن الرومي وأبي فراس ٠ ولنتأمل قطاعا من قصيدة لوضاح اليمن :

قالت : ألا لا تلجن دارنا
أن أبانا رجل غائر !
قلت : فاني طالت غرة
منه وسيفي صارم باتر
قالت : فهذا البحر ما بيننا
قلت : فاني سابح ماهر
قالت : فحولي اخوة سبعة
قلت : فاني غالب قاهر
قالت : أليس الله من فوقنا ؟
قلت : بلى ، وهو لنا غافر
قالت : لقد أعيتينا حجة
فأت اذا ما هجع السامر
واسقط علينا كسقوط الندى
ليلة لا ناء ولا زاجر !!

هذا العمل المسرحي الغنائي المتكامل وأمثاله لم يقدر له أن ينفذ تمثيليا ٠٠ ذلك أن الواقع العربي بكل ما يحويه من ابداع فني كان يستمتع بالرواية والانشاد

والاستماع أكثر من أي شيء آخر ·· هذه الظاهرة التــي لا تزال تعيش في أقطار كثيرة من الوطن العربي ·· في البوادي والحضر ·· فمــا زال المنشدون ينشدون قصص البطولات بالشعر ·· وما زال الناس يستمعون بالسماع رغم انتشار وسائل الاعلام الحديثة في بلادنا ··

القصة العربية الحديثة

رغم كل هــذا التراث القصصي في الحضارة العربية علــى الصعيدين الشعبي والذاتي فقد ظل الفنانون العرب مترددين في كتابة القصة الحديثة ·· ذلك أن تباشير النهضة الثقافية العربية بدأت والكتاب العرب غارقون في متاهات المحسنات البديعية والألفاظ والعبارات الرنانة ·· وكان الاهتمام باللغة الفخمة ذات الجرس المتميز بينما انزوت الاحداث والتحليلات والتركيبات الفنية في الظــل ·· ومع ذلك بدأت الخطوات الحثيثة نحو ايجاد فن قصصي حديث ·· وبدأ الكتاب العرب يغوصون في تراثهم الفني القصصي اللغــوي العريق بحثــا عن شخصيتهم ·· وظهرت في البدء مجموعات قصصية لا زالت متعلقة بالحسنات اللفظية والصنعة الكلامية وتحاول تقليد القدماء كما فعل الدكتور ابراهيم جمعة حين أعــاد احياء المقامات ·· وكمــا فعل الاستاذ توفيق الحكيم في كتابــه الرائع « يوميات نائب في الأرياف » كذلك تعددت الكتب التي تنهج نهــج القدماء أمثــال حديث عيسى بن هشام وغيرهم !·· حتى التعريبات العربية للرواية الأوربية لم تسلم من ذلك كما نشهد في تعريبات الشيخ المنفلوطي الشهيرة « ماجدولين» » وفي النظرات والعبرات ·· ألخ ·

ثم بدأ فن القصة العربية يتطور تطورا مذهلا ·· وبدأ يرتقي قممــا عاليا فظهر في مصر محمود تيمور ، نجيب محفوظ ، محمد عبد الحليم ، د· يوسف ادريس ويوسف السباعي وغيرهم من عشرات الكتاب العظام في فن القصة كتبوا بلغة المستعمر (اللغة الفرنسية) عن واقعنا العربي بكل ما يحويه من جمال وشقاء وعادات وتقاليد وأحلام ·· كما صوروا الشخصية العربية أروع تصوير ونورد منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد ديب وميلاد فرعون وغيرهم ·· ومن تونس وليبيا وسوريا ولبنان والجزيرة العربية والعراق ·· ولا ننسى الكاتب السوداني العالمي الطيب بشير ·· ومئات من الفنانين العرب الذين يكتبون كتابات لا توصف فقط بأنهــا عالمية ولكن بأنها لفنانين ذوي جذور عميقــة في التاريخ ·· خلاصة القول أن الحضارة العربية أبدعت في كافة مجالات الحضارة ·· ومنها فن القصة ··

الهوامش

(١) سورة يوسف . الآيات ١ ، ٢ .

(٢) قصة العرب قبل الاسلام : عمر ابو النصر ، ص ١٢ .

(٣) تاريخ العرب ، فيليب حتي ، طبعة لندن ، ١٩٤٣ م ، ص ٩ .

(٤) دكتور عبد الحميد يونس (محاضرة عن الادب العربي) جامعة القاهرة ، يناير ، ١٩٦٤ .

(٥) مقال للكاتب عن

(٦) الألوسي : « بلوغ الأرب » ، جزء ١ ، ص ٢٢٠ .

(٧) د. نبيلة ابراهيم ، أشكال التعبير ، ص ١٦ .

(٨) القصة العربية القديمة ، محمد مفيد الشوباشي ، ابريل ١٩٦٤ ، وفاروق خورشيد « الرواية العربية » ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

(٩) عبد الحميد يونس « الحكاية الشعبية » ، ص ٦١ .

(١٠) محمد مفيد الشوباشي « القصة العربية القديمة » ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ، العدد ١٠٦ .

(١١) سورة مريم : الآيات من ١٥ الى ٣٠ .

(١٢) الفولكلور في العهد القديم ، جيمس فريزر ، ترجمة د. نبيلة ابراهيم ، ص ٥ .

(١٣) سفر التكوين ١٥ : من ٧ الى ١٨ .

(١٤) سفر التكوين ٣ : من ٢٢ الى ٢٤ .

(١٥) سورة البقرة الآيات ، من ٣٤ الى ٣٥ .

(١٦) سورة طه : الآيات ١١٩ الى ٢١١ .

(١٧) سورة البقرة الآية ٣٠ .

(١٨) الفولكلور في العهد القديم ، جيمس فريزر ، ترجمة د. نبيلة ابراهيم ، ص ١١ .

(١٩) سورة هود . الآيات من ٣٥ الى ٤٣ .

(٢٠) تفسير الطبري ، جزء ١ ، ص ١٧٩ .

(٢١) أنظر مقالا للكاتب بالعدد الثالث من الدارة ، ربيع أول ١٣٦٩ ه .

المراجـــع

١ ـ قصة العرب قبل الاسلام ـ د. عمر أبو النصر .

٢ ـ القصة العربية القديمة ـ محمد مقيد الشوباشي .

٣ ـ الفولكلور في العهد القديم ـ جيمس فريزر . ترجمة د. نبيلة ابراهيم .

٤ ـ الحكاية الشعبية ـ د. عبد الحميد يونس .

٥ ـ تاريخ العرب ـ فيليب حتي . لندن ١٩٤٣ .

٦ ـ بلوغ الأرب ـ الألوسي . جزء ١ .

٧ ـ اشكال التعبير ـ د. نبيلة ابراهيم .

٨ ـ الرواية العربية ـ فاروق خورشيد . القاهرة ، ١٩٦٢ م .

٩ ـ تفسير الطبري جزء ١ .